الخطاب الاجتماعي في القرآن: العلاقات الإنسانية من منظور التنشئة الاجتماعية نموذجًا

د. ليث سعود جاسم*

ملخص البحث:

يتناول البحث قضية الخطاب الاجتماعي في القرآن الكريم (Social Quranic Discourse) وهو موضوع جدير بالاهتمام في إطار مشروع أسلمة العلوم لبناء المنظومة المعرفية لعلم الاجتماع الإسلامي، وقد اختار البحث من نماذج الخطاب الاجتماعي في القرآن الكريم، التنشئة الاجتماعية (Socialization)، من خلال قصص الأنبياء والصالحين والتنشئة الاجتماعية لأبنائهم، وسيعرض البحث نموذجين للتنشئة، وأثر البيئة الأسرية عليها، وهما نموذجان متغايران في طبيعة التكوين الأسري، وأثر عامل البيئة على مدى التكيف مع نظام الأسرة الاجتماعي، وهما إسماعيل عليه السلام وتقبُّلِه لأمرِ الذَّبح من خلال التلّقي الواعي، والتوافق والاستقرارالأسري. وابن سيدنا نوح عليه السلام الذي رفضَ الركوب مع والده في السفينة لِخَلل التلقي غير الواعي،وعدم التوافق والاستقرار الأسري.

الكلمات المفتاحية: الخطاب القرآني- القصص القرآني - التنشئة الاجتماعية - التكيف- البيئة.

Abstract

The research undertakes issue of social discourse in the Holy Quran; it is worthy of attention in the framework of the Islamization project of knowledge to build a system of Islamic Sociology. The research selected from samples of social discourse in the Qur'an on socialization from the stories of the Prophets, the righteous personalities and their children. The research forwards two models of socialization along with the impact that family environment has on them. These two

* أستاذ مشارك في قسم دراسات القرآن والسنة، الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا.

models vary with each other in regards to the nature of family formation and the impact factor of the environment over the extent of adjustment with the family social system. The first model is of Ismail, his acceptance of God's order to be slaughtered while having received consciousness, and stability and harmony of his family. The second model is of the son of Noah who refused to ride the ship with his father because of being unconscious and the lack of stability and harmony of his family.

Key words: Quranic Discourse, Quranic Stories, Socialization, Adaptation, the environment.

Abstrak

Kajian ini menjalankan isu wacana sosial dalam al-Quran; ia layak diberi perhatian dalam rangka kerja projek pengislaman untuk membina sistem Sosiologi Islam. Kajian dipilih daripada sampel wacana sosial di dalam al-Quran tentang sosialisasi daripada kisah-kisah para Nabi, personaliti yang soleh dan anak-anak mereka. Kajian ini menghadapkan dua model sosialisasi bersama dengan impak persekitaran keluarga terhadap mereka. Kedua-dua model ini berbeza diantara satu sama lain dalam hal sifat pembentukan keluarga dan impak faktor persekitaran lebih daripada had penyelarasan dengan sistem sosial keluarga. Model pertama ialah Nabi Ismail, penerimaannya terhadap perintah Allah (swt) untuk disembelih di samping mempunyai kesedaran, kestabilan dan keharmonian keluarganya. Model kedua adalah anak kepada Nabi Nuh yang enggan menaiki kapal itu dengan bapanya kerana tidak sedar diri, kekurangan kestabilan, dan keharmonian keluarganya.

Kata Kunci: Wacana al-Quran, Kisah-kisah al-Quran, Sosialisasi, Adaptasi, Alam Sekitar.

مقدمـــة

بالرغم من أن دراسات عديدة اهتمت بجوانب اجتماعية في القرآن خصوصًا، سواء في سياق نقد المناهج في علم الاجتماع الحديث[1]، أو في سياق فهم قضايا أو ظواهر اجتماعية معاصرة في ضوء القرآن، أو حتى في سياق إنشاء وصياغة علم اجتماع إسلامي معاصر[2]. وإنه لمن المفاجئ حقًّا أنه لا توجد دراسة إلى اليوم متخصصة بالخطاب الاجتماعي في القرآن، ونحن هنا نتحدث عن خصوص القرآن وليس عموم الإسلام أو الفكر الإسلامي[3] أو الحضارة الإسلامية[4]، الأمر الذي يجعل موضوع الخطاب الاجتماعي في القرآن أحد الموضوعات الملحة في البحث العلمي؛ لأن الحاجة ماسَّة إلى امتلاك تصور متين عن الاجتماع الإسلامي كما يبدو في المصدر التشريعي الأول[5] في الوقت الذي تتعرض فيه المجتمعات الإسلامية إلى التمزيق والاهتزاز وحتى الانهيار.

---

[1] انظر مثلاً: قطب، محمد، **حول التأصيل الإسلامي للعلوم الاجتماعية** (القاهرة: دار الشروق، ط1، 1988م)؛ وإمزيان، محمد محمد، **منهج البحث الاجتماعي بين الوضعية والمعيارية**، (واشنطن: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط2، 1991م).

[2] انظر مثلاً: الدرَّازي، عدنان، **من مفاهيم القرآن في السلوك الفردي والاجتماعي** (دار الهادي، بيروت، ط1، 2000)؛ والبستاني، محمود، **الإسلام وعلم الاجتماع** (بيروت: مجمع البحوث الإسلامية للدراسات والنشر، ط1، 1994م)؛ ورضوان، زينب، **النظرية الاجتماعية في الفكر الإسلامي: أصولها وبناؤها من القرآن والسنة** (القاهرة: دار المعارف، ط1، 1982م).

[3] انظر مثلاً: شلبي، أحمد، **الحياة الاجتماعية في الفكر الإسلامي** (القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، ط5، 1986م).

[4] انظر مثلاً: ابن عاشور، محمد الطاهر، **أصول النظام الاجتماعي في الإسلام** (تونس: الدار التونسية للتوزيع، ط2، د.ت).

[5] حتى كتابة هذه السطور فإن ما كتب في إطار فهم القرآن نادر، وهو مع ندرته فإنه جزئي للغاية أو مذهبي وليس بذاك العمق.

1. في معنى الخطاب الاجتماعي وموقع التنشئة الاجتماعية منه:

قبل المضي في تفاصيل هذا البحث، نود أن نحدد مفهومنا للخطاب الاجتماعي، ذلك أن هنالك مشكلة في ضبط معنى "الخطاب" نفسه في الدراسات القرآنية الإسلامية على وجه العموم[6]. وستقوم هذه الورقة بتعريف الخطاب الاجتماعي القرآني باعتباره التصور القرآني لكل ما يتعلق بالاجتماع الإنساني مابين مستوى العلاقات الفردية وتحت مستوى ما ينطبق عليه مفهوم السياسة، فالإنسان الفرد بنفسه هو موضوع العلوم النفسية، في حين أن إدارة الجماعة الكبرى، مع سلطة الأمر والنهي والعقاب من موضوعات علم السياسة[7]، كما أن فهم الخطاب الاجتماعي، ليس مجرد تفسير لآيات قرآنية محددة، إنه فهم منظومة المفاهيم المتعلقة بالاجتماع، وكيف يشكل القرآن تصورًا متسقًا يشمل كل ما يمكن أن يتصل بوصف الاجتماعي؟ مثل: شبكة العلاقات، والبُنى، والمؤسسات، والأدوار، ونظام القيم وتطبيقاتها الأخلاقية، والتنشئة، وصولاً إلى التغيير الاجتماعي والسنن الناظمة له، فالفلسفة الاجتماعية.

إن المساحة التي يشغلها الخطاب الاجتماعي واسعة للغاية، ويصعب على ورقة بحثية كهذه أن تستوعبها، لهذا السبب فإن هذه الورقة ستركِّز على أنموذج للخطاب الاجتماعي في القرآن، وهو "شبكة العلاقات" (Social Relations)، من منظور "التنشئة الاجتماعية" (Socialization)، والاختيار

---

[6] حول مفهوم الخطاب ومشكلة ضبطه انظر: الحاج، عبد الرحمن، **الخطاب السياسي في القرآن** (أطروحة دكتوراه)، (ماليزيا: الجامعة الإسلامية العالمية، 2011م)، الفصل التمهيدي.

[7] انظر: بدر، أحمد أنور، **مقدمة في الإنسانيات والعلوم الاجتماعية** (القاهرة: دار قباء، ط1، 2001م)، ص83، ص93؛ والكيالي، عبد الوهاب، وآخرون. **موسوعة السياسية** (بيروت: الدار العربية للدراسات والنشر، ط2، 1993م)، ج3، ص364.

هذا يرجع إلى الرغبة في تقديم نموذج بحثي غير تقليدي يستند إلى نظرة معرفية بالمفاهيم الأساسية للعلوم الاجتماعية، وفي الوقت نفسه إلى خبرة ومعايشة طويلة مع القرآن الكريم والدراسات القرآنية، ونسأل الله التوفيق على أمل أن تكون إسهامًا متواضعًا في تحفيز المتخصصين في الدراسات القرآنية وكذلك المتخصصين في الدراسات الاجتماعية وعلم الاجتماع للالتفات بجدية للبحث هذا الخطاب الاجتماعي.

2. التنشئة الاجتماعية وشبكة العلاقات:

مفهوم "التنشئة الاجتماعية" هو واحد من المفاهيم الحديثة في علم الاجتماع، ولا يرجع تاريخ ظهوره إلى أبعد من السبعينيات المنصرمة، وبغضّ النظر عن الاختلافات الكثيرة في مدلول هذا المفهوم تبعًا لاختلاف المدارس والمذاهب في علم الاجتماع، وإنه يمكن القول: بأن التنشئة الاجتماعية هي: إعداد الأفراد بما وتهيئتهم للتكيُّف والانسجام مع النظام الاجتماعي[8]. وعلى ضوء هذا المعنى فإن مفهوم التنشئة الاجتماعية يتضمن شقين: الأول معرفي: (تعريف الأفراد الجدد على النظام الاجتماعي، ومفاهيمه)، والثاني: إلزامي: (تعليم الفرد طاعة القوانين الاجتماعية)، وعلى الرغم من أن معظم القوانين الاجتماعية هي قوانين عرفية، إلا أن قوتها في الغالب تفوق قوة القوانين الجزائية والمدنية.

يمكن القول إن القرآن لم يُفصِّل ولكنه أشار إلى التنشئة الاجتماعية بشكل غير مباشر، ولكنه اعتمد الأسلوب القصصي وأولاه اهتمامًا واضحًا، ذاك الذي نجده في قصص الأنبياء والصالحين، وبشكل خاص: يوسف، وإبراهيم، ويعقوب، وإسماعيل، وموسى عليهم السلام، والخضر ولقمان.

---

[8] حول مفهوم التنشئة الاجتماعية انظر: العيسوي، عبد الرحمن، **سيكولوجيا التنشئة الاجتماعية** (الإسكندرية: دار الفكر الجامعي، ط1، 1984م)، ص183.

على سبيل المثال: تركز قصة إبراهيم عليه السلام على تنمية الحرية الفردية والاستقلال (قصة الشك المعرفي عند إبراهيم التي ذكر القرآن تفاصيلها، وسنجد كيف أنه رسَّخ هذه الحرية الفردية في علاقته بابنه عليهما السلام عندما ترك لولده حرية الالتزام بأمر إلهي وجاء ذلك على صورة رؤيا الذبح)، فإنها تعيد تنظيمها في نهاية المطاف بالتوحيد والاستسلام لإله واحد يجعل البشر متساوين ليحدد الحرية بحدود هذا التساوي والاتساق مع الفطرة البشرية (ووصية إبراهيم لبنيه: ﴿وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلاَ تَمُوتُنَّ إَلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [البقرة: 132]. إن قصة رؤيا الذبح تمثل نموذجًا مثاليًّا واقعيا لهذه الحرية الفردية، ففي حين تَرك إبراهيم ابنه لحريته الفردية، ولإيمانه، فإن الابن إسماعيل لم يتردد الاستجابة لإيمانه.

القرآن الكريم يقدم العلاقة بين إبراهيم وابنه (عليهما السلام) كنموذج خالد احتفى به إلى درجة وضعه ضمن مناسك شعيرة الحج التي لا تخفى دلالاتها الاجتماعية.

ويحيل مفهوم "العلاقات الاجتماعية" إلى نسيج العلاقات التي تربط الأفراد بغيرهم، وبما أنه لا يوجد أفراد خارج هذه العلاقات، لذا فإنه عادة ما يستخدم مفهوم "الشبكة" (Net) لوصف هذه العلاقات بـــ"الشبكة الاجتماعية" (Social Network)[9]. فيولد نظام العلاقات مجموعة من الروابط المتفاوتة القوة تبعًا لدرجتها.

---

[9] حول مفهوم "الشبكة الاجتماعية" ودراساته في علم الاجتماع، انظر:

V. Marsden, Peter. ***Social Network***, in: ***Encyclopedia of Sociology***, Edgar F. Borgatta (Editor in Chief) and Rhonda J. V. Montgomery (Managing Editor) (Macmillan Reference USA, New York, 2ed edition, 2000), Vol.4

وعلى العموم تمثل شبكة علاقات الأسرة في القرآن الكريم النواة الصلبة للعلاقات الاجتماعية، والقرآن الكريم كان حريصًا على نظام علاقات اجتماعية أسرية متماسكة إلى أقصى الحدود، الأمر الذي يمكن فهمه من هذا الربط المتكرر بين الدعوة إلى توحيد الله ، والإحسان إلى الوالدين ، يقول الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ۞ وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ [لقمان:13-14][10]. غير أن هذا التعظيم للعلاقة الأسرية لا يتجاوز إلى تعظيم رابطة الدم وحكم العائلة، فمن الواضح أن الخطاب القرآني عمل باستمرار على تقويض تحكم سلطة الروابط الدموية بين البشر، أو على الأقل إضعافها، وضبطها في إطار تصوره للعالم شرعًا؛ لأن إعلاء الروابط الدموية سيؤدي في الغالب إلى تدمير النظام القيمي، واستعباد الناس واستعلاء بعضهم على بعض، وبدلاً من ذلك عظَّم القرآن من شأن الروابط الاختيارية أو ما يسميه القرآن بـــ"الأمة"[11]، وهو مفهوم يمكن أن يشير إلى الروابط الإيمانية (الاعتقادية)، أو الروابط الاتفاقية (المُعبَّر عنها في القرآن بـــ"العهود").

بالتالي؛ فالعلاقات الاجتماعية بمنظور قرآني تعطي للعلاقات الأسرية العمودية (الأب/الأم- الأولاد) منْزلة من منازل العبودية لله، وهي بطبيعة الحال علاقات اضطرارية لا قدرة للإنسان في تغييرها، وخارج هذا النطاق فإنها لا تعطي أية قيمة للعلاقات الاجتماعية الأفقية، إلا بقدر ما تكون وليدة رضا وإرادة حرة

---

[10] وانظر أيضاً: مريم: 14، والعنكبوت: 8، والأحقاف: 15.

[11] حول مفهوم الأمة، انظر مثلاً: نصار، ناصيف، **مفهوم الأمة بين الدين والتاريخ** (بيروت: دار الطليعة، ط2، 1980م)؛ والسيد، رضوان، **الأمة والجماعة والسلطة: دراسات في الفكر السياسي العربي الإسلامي** (بيروت: دار اقرأ، ط1، 1984م)؛ والكيلاني، ماجد عرسان، **الأمة المسلمة: مفهومها، إخراجها، مقوماتها** (عمان: مؤسسة الريان، ط1، 1992م).

ومنسجمة مع مقتضيات الإيمان بالإسلام، فالعلاقات الاجتماعية هي ـــ بحسب تعبير مالك بن نبي ـــ "ظل العلاقة الروحية"[12].

إن النظر إلى العلاقات الاجتماعية من منظور التنشئة الاجتماعية في الخطاب القرآني يحيلنا دائمًا إلى القصص القرآني، وتكاد لا توجد خارجها، وحتى نخرج من العموم فإننا سنركز على أنموذجين متناقضين، هما: ابن نوح، ونبي الله يوسف بن يعقوب (عليهما السلام).

3. ابن نوح والنبي يوسف أنموذجا:

قبل الشروع في تحليل النماذج، لا بد من التأكيد أن تعارض الحالتين (ابن نوح، والنبي يوسف) يجب أن يلاحظ فيهما تماسك القيم وانسجامها في النظرة إلى كل منهما على السواء، كما أن القصتين لهما أبعاد مختلفة، لكننا سنركز في كل منهما فقط على موضوع واحد، هو العلاقات الاجتماعية بمنظور التنشئة.

أ. يوسف الصديق:

مفتاح قصة يوسف يكمُن في مفهومين رئيسين "الحسد" و"الحب"[13]، اللذين يفسدان تماسك الأسرة النواة (وهي -كما أشرنا قبل قليل - ركيزة الاجتماع الإنساني المقدسة). القصة التي تبدأ بالإشارة إلى العائلة المؤلفة من 11 عضوًا (كوكبًا) منذ البداية، تتضمن تحذيرًا من الأب لابنه الذي كان قد قصَّ عليه ما رأى في منامه (أحد عشر كوكبًا والشمس والقمر له ساجدين) كالآتي: ﴿قَالَ يَا بُنَيَّ لاَ تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾[14] [يوسف:5].

---

[12] بن نبي، مالك، **ميلاد مجتمع: شبكة العلاقات الاجتماعية**، ترجمة: عبد الصبور شاهين (دمشق: دار الفكر، ط3، 1986م)، ص57.

[13] انظر: المرّي، نوره، **البنية القصصية في سورة يوسف** (مجلة أفنان، نادي تبوك الأدبي، العدد 13، 2008م).

[14] انظر: الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير، **جامع البيان في تأويل آي القرآن**، تحقيق: أحمد شاكر (بيروت: مؤسسة الرسالة، ط1، 2000م)، ج15، ص558.

لنلاحظ معًا أن الأب قدَّم لابنه أمرًا يبدو من صيغته اللينة أنه أشبه بوصية أو نصيحة، وهو يتضمن معرفة بسلوك اجتماعي، أو حدث اجتماعي وقواعد تصرُّف حياله، إن الحسد سيؤدي إلى "الكيد": ﴿فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْدًا﴾[15]، هذه المعرفة، التصرف "الواجب" حيالها هو الامتناع عن توليدها أو التسبب بها: ﴿لاَ تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ﴾. وبالرغم من أن موضوع الضرر المباشر ليوسف هو الأساس، لكن المسألة تتعلق بالتفكك الأسري، إن المقصد من القصة ليس يوسف وحسب بل العائلة: ﴿لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ﴾ [يوسف:7]. وسواء أكان يوسف الطفل قد استجاب لمقتضى القاعدة أم لا فإن الحسد لعب دوره في التفكك الأسري: ﴿إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ ۞ اقْتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُواْ مِن بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ﴾ [يوسف:8-9].

إن رأب الصدع في الأسرة الذي أصبح واقعًا بعد أن أُلقي يوسف في "غيابة الجب"، يمثل خط الحدث الأكبر الذي تسير فيه القصة، إن عودة لُحمَة العائلة لم يكن أمرًا عاديًّا، كانت ثمَّة ما يشبه المعجزات، في النهاية .. العودة كانت نتيجة تدخل إلهي أكثر منه عمل إنساني ليوسف. لقد تطلَّب عودة الولد لأبيه، ورجوع العائلة إلى علاقاتها الطبيعية مجموعة غير عادية من الأحداث: قحط، سجن ظالم، نبوة، خدعة.

دعونا نشير هنا استطرادًا إلى إن عِظَم تأثير الحسد في تدمير العلاقات الاجتماعية جعل القرآن الكريم يختم السورة قبل الأخيرة بالاستعاذة ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ [الفلق:5] وهي استعاذة فعليًّا من فساد الاجتماع الإنساني

---

[15] انظر: المصدر نفسه.

المقابل للإفساد في الكون، فهو – على حد تعبير الإمام الرازي – "مجامع الشرور الإنسانية"[16].

وعلى أية حال، وبالرغم من أن مفهوم "الحسد" مفهوم نفسي، إلا أنه اجتماعي بالنظر إلى نتيجته، في هذا السياق أيضًا وبنفس المنطق "الحب" وما قد يقتضيه من علاقة غير مشروعة، لن نسهب في الأمر رغم أهميته، فالحب يتعلق بعلاقات اجتماعية خارج نطاق الأسرة أساسًا، وبالتالي فنحن هنا أمام موضوع العلاقات غير المشروعة، في أفظع تجسيد لها وهو "الخيانة الزوجية". صحيح أن نبوة يوسف هي التي حمته من الوقوع بالهاوية إلا هذه النبوة تعكس إيمانًا بمبدأ – هنا هو تحريم الزنا– إن الصراع بين دواعي الغرائز والقيم لا يحسمه إلا الإيمان بالمبدأ، ويمكن القول اعتمادًا على ذلك أن القرآن الكريم يُرسِّخ دور الإيمان حماية للعلاقات الاجتماعية الأفقية من الانهيار.

إن يوسف امتنع عن الغواية لأنها ظلم لإيمانه، وظلم لسيده الذي أكرم مثواه[17]: ﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ [يوسف:23] إنه جزء من الشِّق المعرفي في التنشئة الاجتماعية، القسم الآخر في الإيمان بالله: ﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [يوسف:33]. إنه لأمر مثير أن يختتم القرآن بالتأكيد على فِعل الله عزَّ وجل في ذلك: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [يوسف:34].

---

[16] الرازي، فخر الدين بن ضياء الدين، **مفاتيح الغيب** (بيروت: دار الفكر، ط1، 1981م)، ج32، ص195.

[17] البغوي، الحسين بن مسعود، **معالم التنْزيل**، تحقيق: محمد عبد الله النمر وآخرين (القاهرة: دار طيبة، ط4، 1997م)، ج4، ص228.

إن التنشئة الاجتماعية والعلاقات الاجتماعية ـــ عموديًّا (الأسرة)، وأفقيا (الناس) ـــ كما تبدو في هذه السورة، قائمة على مبدأين: الأول هو حماية العلاقات الأسرية، والثاني هو تحكيم قيمة العدل. وسندهما الإيمان بالله تعالى.

ب. ابن نوح:

في حين تجري أحداث قصة يوسف في أجواء عائلة الشمس والقمر (الأب والأم) فيها مؤمِنَين، فإن قصة ابن نوح تجري أحداثها في عائلة مفككة؛ حيث الأب والأم متنافرين. إن قصة ابن نوح في الواقع تتناول العلاقات الاجتماعية في إطار تفكك يطال رأس الأسرة، أي الأب والأم، فأمُّ ابن نوح خانت زوجها ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا اِمْرَأَةَ نُوحٍ وَاِمْرَأَةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ﴾[18] [التحريم:10].

إن الحوار الذي تعمَّد القرآن الكريم ذكره يعكس لنا كيف أن تنشئة ولد نوح الاجتماعي المضطرب في هذه الأسرة المفككة بسبب الخيانة أدَّت إلى ضياعه، (ولا يوضح القرآن ما إذا كانت الخيانة زوجية أو غير ذلك، وإن كان أكثر المفسرين على أنها ليست خيانة زوجية، وذلك تنْزيهًا للأنبياء عليهم السلام)

---

[18] جمهور العلماء على أن امرأة نوح لم تخنه بالزنا، وإن بالكفر والإعراض عن دينه؛ لأن منصب النبوة منَزَّه عن ذلك، وذهب بعض العلماء (مثل الحسن البصري وابن جريج ومجاهد) إلى أنه الزنا. ولم يمنع ذلك الإمام الشوكاني من القول بأنه "قد وقع الإجماع على أنه ما زنت امرأة نبيّ قطّ". ونوضح بأننا نحن هنا لسنا معنيين باتخاذ رأي في ماهية الخيانة، وإنما معنيون فحسب بكونها خللاً جذريًّا في علاقات رأس الأسرة (الأب/الأم)؛ لأن هذا هو القدر الذي يتصل الآن بموضوعنا، ولكننا ذكرناها للتنويه وضرورة إطلاع القارئ على أقوال العلماء في الموضوع. انظر: الطبري، **جامع البيان**، ج15، ص340؛ والشوكاني، محمد بن علي، **فتح القدير الجامع بين فنّي الرواية والدراية في علم التفسير**، تحقيق: عبد الرحمن عميرة (المنصورة: دار الوفاء، ط1، 1992م)، ج5، ص339.

وأكثر من ذلك أنها أدت إلى تكوين نفسية مريضة، فالابن كان يؤمن بأن "أبيه" كان نبياً، وأن الله سيرسل الطوفان، لكنه مع ذلك لا يريد أن يؤمن، هذا المعنى جعل الابن يجيب بالقول: ﴿سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ﴾ [هود:43]. لنلاحظ كيف أن ابن نوح تبع أمه الغاوية .. ولم يتبع أباه، وقد يكون في ذلك إشارة إلى تأثير موقع الأم في التنشئة الاجتماعية الأسرية، فللأم ههنا تأثير حاسم.

انتهت قصة نوح إلى مأساة غرق الزوجة والولد، وهو غرق يتضمن خسارة شاملة في الدنيا (العائلة) والآخرة (النجاة). وإذا ما قارنَّا بينها وبين قصة يوسف، فإننا سنلاحظ كيف أن التنشئة في سورة يوسف أعادت للأسرة لُحمتها، فالتفكك كان في أضلاع الأسرة وليس في أصلها (الأب والأم)، في حين كانت في قصة نوح ذات نهاية لا سبيل إلى إصلاحها.

لنلاحظ أيضًا كيف أن قيمة الحفاظ على الأسرة هي دون قيمة الإيمان ذاتها، تعارض القيمتين يمنح الإيمان بالله الأفضلية، لنلاحظ كيف أن نوح عليه السلام أرجع معيار الحسم في علاقته بعائلته وابنه هو الإيمان بالله، إن نوح فضَّل الإيمان على أسرته: ﴿قَالَ لاَ عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللّهِ إِلاَّ مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ﴾ [هود:43].

النتائج:

كانت القصص التي عالجها البحث مجرد أمثلة من الأمثلة الكثيرة، يمكننا أن نبحث من خلالها العلاقات الاجتماعية من منظور التنشئة في القرآن الكريم، وهي تشير إلى النتائج الآتية:

- أهمية القصص في بحث الخطاب الاجتماعي القرآني واستكشافه.

- تعكس هذه النماذج -التي مررنا عليها سريعًا- المساحة المتوفرة والواسعة في القرآن الكريم لهذا النوع من التحليل لبناء نظرية اجتماعية إسلامية،

ونحن في مخاض الانعتاق المعرفي من المناهج الغربية التي هيمنت على قراءاتنا الاجتماعية.

– العمل على بناء منظومة معرفية تربط بين خطاب الوحي المتمثل في الكتاب والسنة الصحيحة، ثم المذخور المعرفي التراكمي من إنتاج علمائنا من السلف والخلف (في التفسير، وشروح الحديث، وشروح كتب الأخلاق والتزكية، وكتب الفقه وشروحها) بالإضافة إلى كتب العلوم الإنسانية في رصدها للظواهر الاجتماعية الإنسانية وتقنيتها البحثية، لا تحليلاتها الأيديولوجية وذلك في منهجية تكاملية لبناء علوم مبنية على مرجعيتنا الشرعية، كي يمكنها أن تخاطب الإنسان في عصر العولمة والهيمنة وتأخذ بيده إلى فهم إسلامي متين.

خلاصة البحث:

عرض البحث نموذجين من الأبناء تعرَّضا لتربيةِ بيئتين أُسَرِيتين مختلفتين أثرتا على التنشئة الاجتماعية لكل منهما، فأسرة سيدنا إسماعيل أسرةٌ مستقرَّة بفكرها، وروابطها الاجتماعية مما أثرت على طبيعة شخصية إسماعيل الذي سلَّم لأمر الله طائعًا مختارًا مستوعبًا للتكليف. وقدم البحث نموذجًا آخرَ لأسرةٍ غير مُستقرَّةِ الرَّوابط، فالأم تخالف الأب في عقيدته وسلوكه، وبالتالي كان لهذا التناقض أثرُه على الابن الذي تأثر بأمه، وانعكس عليه هذا، وإن النموذجين ينتصبان مثالاً تربويًّا من خلال خطاب القرآن الاجتماعي الذي تتناغم فيه المكونات المجتمعية مع المكونات النفسية ومتطلباتها والآثار السلوكية لتلك المكونات. ومع كل هذا هناك مجال واسع للكتابة حول هذا الموضوع وبلورته أكثر.